التعريف والنقد

مذكراتي

عن الثورة العربية الكبرى

للدكتور أحمد قدري

ط . دمشق ١٣٧٥ هـ = ١٩٥٦ م

لقد صدق صديقي المؤلف رحمه الله بما قاله في فاتحة مقدمته أن إيمانه بالوحدة العربية قويّ كإيمانه بالله لا يتحلحل منه ولا يميل ، وان معنى كلمة العروبة عنده أن تنتظم بلدان العرب بأقطارها الناطقة بالضاد فانها كلها أوطانه وبلاده ولها سعيه وجهاده .

وخشي المؤلف ، وعمره قد تقدم والتاريخ يتطور أبداً أن يضيع ما يعرفه عن الثورة العربية الكبرى التي قام بها الحسين بن علي وأعوانه من أنصار الوحدة العربية ، وأن ينحرف التاريخ عن تسجيل الحقائق من أخباره فألف مذكراته هذه ، وهو ممن التحق بالثورة العربية والأمير فيصل في أبي اللّسل (أو الأسل) من مشارف الشام ، وكنت يومئذ من رجال حملته العربية ، ومن أطبائها الذين أبلوا أحسن البلاء حمدي حمودة ومرشد خاطر وعبد العزيز الكنفاني ، فالدكتور قدري يعرف كثيراً من الحقائق عن هذه الثورة ، وكان من الرعيل الأول في العمل القومي للوحدة العربية ، ولذا أرى أن هذه المذكرات من وثائق التاريخ العربي ، وقد تكلم في مقدمتها عن بدء نشوء الفكرة القومية ودواعيها ، وعن تأليف الجمعية العربية الفتاة ، وكان مركزها الأول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

باريس لأن أعضاء هيئتها الإدارية الأولى كانوا طلاباً فيها كعوني عبد الهادي وأحمد قدري ورفيق التميمي ورستم حيدر ومحمد المحمصاني وتوفيق الناطور ، وانضم اليهم الأمير مصطفى الشهابي رئيس المجمع العلمي العربي وصبحي الحسيبي وغيرهم من رجال العرب وشبابهم كالأمير طاهر الجزائري والشيخ كامل القصاب والشهيد الأمير عارف الشهابي الذي حُلّف فخري البارودي اليمين بحضوره .

وبحث عن جمعية الإخاء العربي والمنتدى الأدبي (١٩٠٩ — ١٩١٥) الذي كان من أقوى العوامل على نشر الفكرة العربية وقد انتظمت في سلك أعضائه ، ورئيسه يومئذ شهيد العروبة المخلص عبد الكريم قاسم الخليل ، وكان من أعضائه سيف الدين الخطيب وسامي العظم ورفيق رزق سلوم واحمد عزة الأعظمي صاحب مجلة المنتدى الأدبي وغيرهم ، وكان موئلاً لطلاب العرب في الآستانة جمع شملهم وأضرم في صدورهم جذوة العروبة ، وبثّ فيهم فكرة الوحدة القومية الكبرى التي أرسل الله لتأييدها رائد العروبة الأكبر في هذا العصر ورئيس الجمهورية العربية المتحدة (جمال عبد الناصر) أنجح الله عمله ، وحقق للعروبة الخالصة أمله .

كذلك بحث عن (جمعية العهد) العسكرية ، وهي جمعية سرية ضمت ضباط العرب ، ومن أعضائها ياسين الهاشمي ومولود مخلص وعزيز علي المصري ونوري السعيد وسليم الجزائري ، وكان رئيسها في حلب ياسين الهاشمي رئيس أركان الحرب لفخري باشا قائد الفيلق (١٣) ، وكنت يومئذ ضابط احتياط في حلب ، فانتظمت في سلكها بواسطة الضابط العربي الكبير يحيى كاظم أبو الشرف . ولم تكن هذه الجمعية في حلب قاصرةً على الضباط بل انضمّ اليها رجال مخلصون لعروبتهم في الشهباء أمثال التاجر المحنّك عبد الرحمن عوف ، وبحث أيضاً عن مؤتمر باريس ، وحزب اللامركزية ، والجمعية الاصلاحية البيروتية ، كما بحث عن موقف الحكومة العثمانية من العرب والحجاز بعد مؤتمر باريس ، وعن فرار الشهداء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأمير عارف الشهابي وعبد الغني العريس وتوفيق البساط وعمر حمد شاعر العروبة ببيروت والتجائهم الى جبل العرب ، ومنها الى الجوف وأميره يومئذٍ نوّاف الشعلان ، وقد وصلوا الى الجوف ، وكنت يومئذ قد سبقتهم اليه أنا وأخي الشهيد جلال البخاري ففرحنا بهم الفرح كلّه ، وبعد قليل وصل الى الجوف « دومة الجندل » الشهيد البطل أحمد مريود وخاله ، وبعد وصولهم أوصيتهم أنا وأخي جلال ، بوجوب كتمان حقيقتهم عن نوّاف الشعلان ، لأنه يخشى غائلة جمال باشا إن علم بأن نوافاً آوى اليه أعداء دولته ، ونحن قد كتمنا أمرنا عن نوّاف عملاً بوصية أحمد مريود ، ولم يعمل عبد الغني العريسي بوصيّتنا اجتهاداً منه بأن التصريح أصلح ، وأطلع ثاني يوم الأمير نوافاً على حقيقة اخوانه وأنهم فارّون من جمال باشا ، فأوجس في نفسه خيفة نوّاف ، وأوعز اليهم بالرحيل الى أي جهة يريدونها بايعاز من أبيه نوري الشعلان ، فاختاروا الرحيل الى الحجاز للعمل مع الحسين بن علي وفيصل بن الحسين ، وأمدّهم نوّاف بالزاد والدليل ويبلغ عشرين ليرة عثمانية ، مع كتاب توصية إلى شهاب شيخ عرب الفقير الذي قلّدته الحكومة العثمانية خفارة السكة الحجازية ، وبعد نحو ستة أيام من رحيلهم بلغوا مضارب الفقير على مقربة من مدائن صالح ، ونزلوا على الشيخ شهاب وأعطوه كتاب نواف الشعلان ، والشعلان والفقير يرجعان الى عنزة فهم أقرباء ، فوعدهم بتدبير أمرهم وطمع بركائبهم فزيّن لهم السفر الى الحجاز بالسكة الحجازية قائلاً : وأرسل معكم من حاشيتي من يركبكم القطار الى المدينة فتنجون من وعثاء الأسفار ، واذا وقع القدر عمي البصر ، فوافقوه ، وذهبوا الى المدائن ، وطيبها كما علمت من الميدان من عرق تركي ، فعرف عبد الغني العريسي بسنه الذهبية ، لا كما ذكر المؤلف من أن طبيب المحطة عرفهم بضحك الأمير الشهابي ، وأنه كان يعرفه ، ولما تأكّد ذلك أخبر قائد الموقع فأحاط بهم جنده وأرسلهم الى دمشق ومنها ارسلوا الى عاليه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذه خلاصة أسرهم كما علمته بعد ذلك من الشهيد البطل أحمد مريود ببغداد ، ومن صديقي الأمير الجليل طاهر الجزائري بدمشق ، ولم يذكر الدكتور قدري في مذكراته (ص ٤٢) رحلة هذه القافلة المجاهدة الى الجوف (دومة الجندل) ومنه الى مدائن صالح فقال ما نصه : «أما الباقون - أي الأمير عارف الشهابي وعبد الغني العريسي وعمر حمد وتوفيق البساط - فسلكوا طريق الصحراء الى أن وصلوا الى تبوك ، فزيّن لهم شيخ عرب الفقير سلوك طريق السكة الحديدية ، فأخذوا برأيه وركبوا القطار ، إلاّ أنهم بدلاً من أن يتواروا عن الأنظار جلسوا أمام نوافذ القطار ، وحدث أن ضحك الأمير عارف الشهابي فرآهم طبيب المحطة ، وكان يعرف الأمير عارفاً ، فسعى الى أن تعرّف عليه ، ثم أخبر السلطة المحلية ، فألقوا القبض عليهم وساقوهم الى ديوان حرب عاليه .

إن إغفال المذكّرات لرحلتهم الى الجوف بعد فرارهم إلى جبل حوران (جبل العرب) ، ومن الجوف الى المدائن ، هو خطأ تاريخي مخالف للواقع ، فقد عشنا معاً في الجوف نحو اسبوع ، ومعنا الشهيد احمد مريود وخاله وأخي جلال البخاري ، ولم يبق على وجه الأرض من يعرف هذه الحلقة التاريخية المفقودة غيري ، هذا نبأ القافلة الأولى ، وأما القافلة الثانية التي أوعز لها نواف بمغادرة الجوف الى أية بقعة يختارونها فتتألف من أحمد مريود وخاله محمد وأخي جلال ، فسلكوا سبيل القافلة الأولى الى مدائن صالح ، واخترت أنا الرحيل الى العراق لأن هذه الرحلة أقل تعرضاً للخطر من الرحيل الى الحجاز ، وفي المدينة فيلق من الجيش التركي فلا فرق بينها وبين دمشق ، وحينما بلغت هذه القافلة الثانية المدائن وقابلوا شهاباً الفقير عرفوا منه مصير القافلة الأولى فارتدّوا الى الجوف ، وكان نوّاف الشعلان رحل الى أبيه النوري النازل في ظاهر ضمير ، وكنت رحلت مع عرب صليب الى العراق ، ولما بلغوا الجوف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وعلموا برحيل نوّاف الى ضمير لحقوه اليها فوجدوا الأمير طاهراً الجزائري وقد حل ضيفاً على نوري الشعلان مخافةَ عدوان جمال باشا ، وكان نيته السفر الى العراق .

وفي الصفحة (٧٥) يقول : « وقد وصل رضا الركابي بالوقت المناسب للسراي واستلم رياسة الحكم وفقاً للقرار الذي تبلّغه » قال هذا بعد هزيمة الأتراك وخروجهم من دمشق ودخول فيصل عاصمتها في ١٣/١١/١٨ ، وفاته أن يذكر أن القائد العربي الكبير رضا الركابيّ الذي عيّنه الجيش التركي قائداً عاماً للاستحكامات التي فكروا باقامتها حول دمشق دفاعاً عنها ، قد انفصل مع بعض جنده من الجيش التركي وانضمّ الى القوّة الزاحفة من جبل العرب الى دمشق ، في دير علي ، وكنت يومئذ مع هذه الحملة العربية ، وجمعت بينه وبين قوّاد هذه الحملة سلطان الأطرش وابن عمه حسين الأطرش شيخ عنز لا مع الانكليز كما افتراه عليه بعض من يكتبون التاريخ بعواطفهم ، ويوم دخوله دمشق صعد الى قصر الحكومة ، وعلى كرسيّ الحكم الأمير سعيد الجزائري ، فألقيت على لسانه كلمة حماسية ، اقترح الركابيّ أن يكون مطلعها : « قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » ثم سمّاه فيصل الحاكم العسكري العام ، وكان أول ما قام به إعلانه بأن الجيش العربي بقيادة الأمير فيصل العليا سيشنق كل من يجرؤ على الإخلال بالأمن ، وأمر بنصب المشنقة أمام قصر الحكومة ، فاستتب النظام وعادت الأمور الى مجاريها بحزم القائد الركابيّ الكبير وبحسن تدبيره وحكمته ، تغمّده الله برحمته .

وفي الصفحة (٥٠) يذكر أن جمال باشا بعد أن أمر بتوقيف الشهيد عبد الكريم الخليل واعتقال الركن العربيّ أمين لطفي قائد الحامية الاسكندرونية أخذ يبعد المثقفين من ضباط العرب ، وأرسل جميع ضباط الخدمة المقصورة من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

خريجي المدارس العالية الى جبهة شناق قلعة ، وفيلق الموصل الى القفقاس وياسين الهاشمي الى جبهة الكربات ...) والحقيقة التاريخية أن جمالاً بعد حفلة النادي العربي بدمشق التي حضرها جمال احتفاءً بعبد العزيز شاويش ، وسمع شبان الخدمة المقصورة وبينهم الشهيد جلال البخاري ذو الصوت الرخيم ينشدون في الفترات التي تخلّلت خطباء الحفلة « نحن جند الله شبان البلاد » وترجمت له ليلتئذٍ صمَّم على تمزيق شمل الخدمة المقصورة ، ولم يرسل جميع الضباط الاحتياط الى جبهة شناق قلعة بل فرّقهم بعد هزيمة جيشه الزاحف الى قناة السويس فقذف ببعضهم الى الأناضول ، وببعضهم الى حلب وغيرها ، وكنت يومئذ من ضباط الاحتياط فأرسلني الى حلب مع بعض إخواني في الخدمة المقصورة ، وفي حلب انتظمت كما ذكرت في سلك جمعية (اخوان العهد) التي كان ياسين الهاشمي رئيساً لها .

إن أمثال هذه المذكرات التي يتحرّى أصحابها ذكر الحقيقة ويخافون عليها من النسيان هي التي تصون تاريخ نشوء الفكرة القومية في العرب ، وتحفظه من أن تشوّه الأباطيل وجهه الجميل ، وبمقابلة بعض هذه المذكرات القومية ببعض يتبيّن وجه الصواب وعلى كلّ من عايش أصحاب المذكرات أن يصحّح ما غفلوا عنه وأخطأوا في تقريره ، فسرعان ما تتشوّه الأخبار ، ويطرأ النسيان على الإنسان .

وقد وقع في هذه المذكرات شيء من الخطأ فقد ذكر ص ٣٤ أنه على أثر دخول تركية الحرب سنة ١٩١٤ استقال سليم البستاني من وزارة الزراعة والتجارة ، والمستقيل سليمان البستاني لا سليم ، ومن خطأ التعبير ما جاء في الصفحة (٤٨) متحدثاً عن الشريفين عبد الله وفيصل بما نصه : « وبذلك يكون الأخَوان رهينتين في يد جمال باشا » ، وفي الصفحة (٦٥) قال ما نصه : « ولما لاح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الصباح غادرنا القرية قاصدين عنزة قرية حسين الأطرش» والصواب أن قريته (عنز) لا عنزة ، وفي الصفحة (٧٠) : «فأخذناه وابنه محمد معنا الى الأزرق» والصواب محمدا ، وأمثال هذه الهفوات النحوية والتاريخية لا تذهب بما لهذه المذكرات من حسنات ، تغمّد الله الصديق المؤلف برحمته بمقدار ما أحبّ من الخير لأمته .

التوضي